(الخليفةُ الراشدُ عمرُ بن عبد العزيز –2–)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبدُه ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله العظيم، وأحثكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

يقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:90].

وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:111].

أيها الإخوة:

أخبارُ العلماء العاملين، والحكماء الصالحين، والمجاهدين المتقين تغرسُ الفضائلَ في النفوس، وتدفعها إلى تحمُّل الشدائد والمكارِه في سبيل الغايات النبيلة والمقاصد الجليلة، وترفعها فوق شهوات الماء والطين لتصل بها عليين.

ومن هنا قال بعض العلماء: الحكاياتُ جندٌ من جنود الله تعالى، يثبّت بها قلوب أوليائه.

نحن في الخطبة الحادية عشرة من سلسلة (أعلام من الشام) التي أحدّثكم في كل خطبةٍ منها عن واحدٍ من أعلام هذا البلد التقيّ المرابط المبارك الكريم الصابر، عن علَم وُلِدَ هنا، أو مرَّ من هنا فعاش حقبةً من الزمن، أو توفاه الله في هذه البلدة.

والأعلام المختارون من بعد عصر الصحابة وحتى نهاية القرن الثالث عشر للهجرة.

كنت قد تحدثتُ إليكم عن السلطان الشهيد نور الدين زنكي، وعن السيدة ستِّ الشام، وعن مؤرّخِ دمشقَ ومحدثِها الإمامِ الحافظِ ابنِ عساكر، وعن سلطانِ العلماء العزِّ بن عبد السلام، وعن الإمامين الأوزاعي وابن كثير، وعن الحافظين الذهبي والمزّي، وعن الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، وعن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، وثانيةً أحدثكم اليوم عنه رضوان الله تعالى عليه:

(الخليفةُ الراشدُ عمر بن عبد العزيز –2–)

ذلك لأنَّ أحدَ الإخوة الكرام أخبرني بعد الخطبة الماضية فقال: لقد ذهبتَ بنا إلى نبعٍ فيَّاضٍ ولم تسقِنا منه إلا كأساً، وأنبأني أستاذٌ فاضلٌ أنه خطَب على منبرِه مجموعةَ خُطبٍ عنوانها "عمر بن عبد العزيز" ثم إنَّ المادةَ العِلْميةَ العَمَلية لسيدنا عمر بن عبد العزيز ثريةٌ وغنيةٌ، وفيها الكثيرُ الكثيرُ من الفوائد..

كلُّ ذلك دعاني للحديث ثانيةً عن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ﵁.

أيها الإخوة:

العدلُ، والمساواةُ، وحفظُ الحرّيات: ثلاثةٌ كانت أعمِدَة الحكم في خلافة عمر، وطَّدت له حُكمَه، وحبَّبت العباد به، وحَفِظَت عليه آخرته، فبارك الله بأيامه في الخلافة مع قلَّتها، وأعلى الله ذكرَه في أرجاء الأرض مع سَعَتِها..

هذه الثلاثة كانت محاورَ خطبةِ الأسبوع الماضي، وزيادةُ شرحِها والتمثيلُ لها، هي مادةُ خُطبةِ اليوم، واسمحوا لي أن أجعلَ مادةَ الخطبة قصصاً من سيرته العطرة.

كتَبَ إلى الحسن البصري يسألُه في صفة الإمام العادل فأجابه الحسن:

(الإمامُ العدل –يا أميرَ المؤمنين– كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعلِّمُهم كباراً، يكتبُ لهم في حياته، ويدَّخِرُهم بعد مماته.

والإمامُ العدلُ –يا أمير المؤمنين– كالأمِّ الشفيقةِ البرَّةِ الرفيقةِ بولدها، حملتْه كُرهاً، ووضعتْهُ كُرهاً، وربَّتْهُ طفلاً، تسهرُ بسهَره، وتسكنُ بسكونه، ترضعُه تارةً، وتفطمُه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتمُّ بشِكايتِهِ.

والإمامُ العدلُ –يا أمير المؤمنين– وصيُّ اليتامى، وخازن المساكين، يربِّي صغيرَهم.

والإمامُ العدلُ –يا أمير المؤمنين– كقلبٍ بين الجوانِح، تصلحُ الجوانح بصلاحه، وتفسدُ بفساده.

والإمامُ العدلُ –يا أمير المؤمنين– هو القائمُ بين الله وبين عباده، يسمعُ كلام الله ويُسمعُهم، وينظرُ إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم.

فلا تكنْ –يا أمير المؤمنين– فيما ملَّكك اللهُ كعبدٍ ائْتَمَنَهُ سيِّدُه واستحفظَهُ مالَه وعيالَه، فبدَّد المال وشرَّدَ العيال، فأفقرَ أهلَه وفرَّقَ مالَه).

بمثلِ هذه الكلماتِ والنصائح كان عمرُ بن عبد العزيز يستضيءُ في عدله بين الرعية، كيف لا؟ وهو التالي للقرآن، الفاهمُ للسنة، المتأدِّبُ على أيدي العلماء والصلَحاء، وقد خَبِرَ أثرَ ظلمِ الرعية في إفسادها قبل توليه الخلافةَ.

دخل مرةً على الوليد بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ عندي نصيحةً، فإذا خلا لك عقلُك، واجتمع فهمُك فسلني عنها، فمكث أياماً ثم قال: يا غلام من بالباب؟ فقيل له: ناسٌ وفيهم عمرُ بن عبد العزيز، فقال: أدخله، فدخل عليه فقال: نصيحتَكَ يا أبا حفصٍ، فقال عمر: إنه ليس بعد الشركِ إثمٌ أعظمُ عند الله من الدم، وأن عمَّالَك يقتلون ويكتبون إنَّ ذنبَ فلانٍ المقتولِ كذا وكذا، وأنت المسؤولُ عنه، والمأخوذُ به؛ فاكتبْ إليهم ألَّا يَقتُلَ أحدٌ منهم أحداً حتى يكتُبَ بذنبِه، ثم يُشهِد عليه، ثم تأمر بأمرِكَ على أمرٍ قد وَضَح لك.

فقال الوليدُ: بارك الله فيك يا أبا حفص، ومنع فقدك. عليَّ بكتابٍ، فكتبَ إلى أمراءِ الأمصار كلِّهم.

ومرةً بعثَ إليه واليه على البصرة برجلٍ اغتُصِبَتْ أرضُهُ، فردَّ عمرُ هذه الأرضَ إليه، ثم قال له: كم أنفقْتَ في مجيئِكَ إليَّ؟ قال: يا أمير المؤمنين، تسألُني عن نفقتي، وأنت قد ردَدْتَ عليَّ أرضي وهي خيرٌ من مائة ألف؟! فأجابَهُ عمرُ: إنما ردَدْتُ عليكَ حقَّك، ثم ما لبثَ أن أمرَ له بستين درهماً كتعويضٍ له عن نفقاتِ سفرِه.

وكتب إلى عاملِهِ على البصرةِ في شأن أهل الكتاب: انظرْ مَن قِبَلَك من أهل الذمَّةِ ممَّن قد كبُرتْ سِنُّهُ، وضعُفَتْ قوَّتُه، وولَّتْ عنه المكاسبُ، فأَجْرِ عليه من بيتِ مالِ المسلمين ما يُصلِحُه. فلو أن رجلاً من المسلمين كان له مملوكٌ كبرتْ سِنُّه، وضعُفتْ قوتُه، وولَّتْ عنه المكاسبُ، كان من الحق عليه أن يَقوتَهُ حتى يُفرِّقَ بينهُما موتٌ أو عتقٌ. وذلك أنه بلغَني أن أميرَ المؤمنين عمرَ بنَ الخطاب ﷺ مرَّ بشيخٍ من أهل الذِّمَّة يسألُ على أبواب الناس، فقال: ما

أنصفناك إن كنا أخذْنا منك الجزيةَ في شبيبتِك ثم ضيَّعناك في كِبَرك! قال: ثم أجْرى عليه من بيتِ المال ما يصلحُهُ.

ويوماً أرسلَ إليه عاملُه على البصرة عدي بن أرطأة يقول: إنَّ أناساً قبلَنا لا يُؤدُّون ما عليهم من الخراج (أجرةُ الأرض التي سلمتْهُم إياها الدولة) حتى يمسَّهم شيءٌ من العذاب.

فكتبَ إليه عمرُ: أما بعد، فالعجبُ كلُّ العجبِ من استئذانك إيَّايَ في عذاب البشر، كأني جُنَّةٌ لك من عذاب الله، وكأنَّ رضاي ينجيكَ من سخَطِ الله، فإذا أتاكَ كتابي هذا، فمَنْ أعطاكَ فاقبلْهُ عفواً، وإلا فأَحلِفْهُ، فوالله لأَنْ يَلقَوا اللهَ بخياناتِهم أحبُّ إليَّ مِن أنْ ألقاهُ بعذابِهم، والسلام.

وكان –رحمهُ الله– يُعلِّمُ ولاتَه أنه بالعدلِ تستقيمُ الحياةُ بكل شؤونها، فلمَّا أرسلَ إليه بعضُ عُمَّالِه يقول: أما بعد، فإنَّ مدينتَنا قد خربتْ، فإنْ يَرى أميرُ المؤمنين أن يَقطَعَ لنا مالاً نرُمُّها به فعَل. فكتب إليه عمرُ: أما بعد، فقد فهمْتُ كتابَك، وما ذكرْتَ أن مدينتَكم قد خربت، فإذا قرأتَ كتابي هذا، فحصِّنْها بالعدلِ، ونَقِّ طُرقَها من الظلم، فإنَّه مَرَمَّتُها، والسلام.

وكان عمرُ يُقيم وَزناً لمبدأ المساواة بين المسلمين، حتى في الأمور العامَّة، ومن ذلك أمرُه بأنْ لا يُخصَّ أُناساً بدعاء المسلمين والصلاة عليهم، فكتب إلى أمير الجزيرة يقول:... وقد بلغني أن أناساً من القُصَّاص قد أحدثوا صلاةً على أُمرائهم، عِدْلُ ما يصول على النبي ﷺ، فإذا جاءَك كتابي هذا، فمُرِ القُصَّاصَ فليجعلوا صلاتَهم على النبي ﷺ خاصةً، ولْيكنْ دعاؤُهم للمؤمنين والمسلمين عامةً، ولْيَدَعُوا ما سوى ذلك.

ولعلَّ من أجملِ وأجمعِ ما قيل في وصف عهدِ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وما اجتمع فيه من العدل والمساواة وحفظ الحريات قولَ الإمام الفقيه الحُجَّة عالِم المدينة القاسمِ بن محمد بن أبي بكر الصديق: (اليوم ينطِقُ كلُّ مَن كان لا ينطِقُ).

أيها الإخوة:

العدلُ والمساواةُ وحفظُ الحريات، ثلاثةٌ أسعدتْ الخليفةَ الراشدَ عمرَ، وأسعدتْ به، وطَّدتْ له حكمَهُ، وحبَّبتْ به رعيَّتَه، وأغاظتْ منه خصومَهُ.

وهذه الثلاثةُ لا تظهَرُ في المرءِ صُدفَةً، ولا يكتسبُها طفْرَةً، بل يعيشُها تربيةً وتعلماً وتدريباً، ومن هنا يَظهَرُ بعضُ الواجبِ العملي من الخطبة للإخوة الحاضرين أو السامعين:

فالأبُ الذي لا يعدِلُ بين أولاده، ولا يُسوّي بينهم في العطاء، يُربّيهم على الظلم، ويُدرّبهم عليه، وينمّي في نفسه مخالفةَ الحق والعدل، والنبي ﷺ يقول: «**اتَّقُوا اللَّهَ، وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ**». [البخاري ومسلم]

والمنهجُ التعليميُّ الذي يمنعُ الطالبَ من الاعتراض على خطأ المعلم في تصحيحِ ورقةِ الامتحان منهجٌ يربّي فينا السكوتَ على الخطأ والقبولَ بالظلم.

والأخُ الذي يمسكُ عن أخواته البنات حقَّهُنَّ في الميراث من والدِهن وتؤيّدُه على ذلك الظلمِ أمُّهُ، ينمّي في نفسِه الاعتداءَ على حقوقِ الآخرين، وتعينُه على هذه التربية والدتُهُ.

والزوجُ الذي يمتنعُ عن طلاق زوجته حتى تُبرّئَهُ من حقوقِها في المقدَّمِ والمؤخَّرِ وهو الآثمُ المعتدي، يربّي نفسَه ومَنْ حولَه على الظلم والسرقة والاعتداء.

وعكسُهُ المرأةُ التي تحصُرُ الزوجَ بأولاده وماله، وتريدُ خلعَه مستأثرةً بمهرها كاملاً، مستظهِرةً بمحامٍ قويٍّ وأهلٍ أشرارٍ، يعينونها على الظلم والاعتداء والفجور.

هذه صورٌ معدوداتٌ من حوادثَ لا تعدُّ ترونها -أيها الاخوة والاخوات- حولكم تنزعُ منا العدل والمساواة وحفظ الحريات، وتزرعُ أضدادَها، ونحن جميعاً مدعوُّون إلى استبدال الصوابِ بالخطأ، والعدلِ بالظلم، والمساواةِ بالتحيُّز، والحفاظِ على الحرياتِ بالقهر والقمع وإسكات الحق.

مَاتَ عُمَرَ بنَ عَبْدِ العَزِيْزِ يَوْمَ الجُمُعَةِ، لِخَمْسٍ بَقِيْنَ مِنْ رَجَب، سَنَةَ إِحْدَى وَمائَةٍ، بِدَيْرِ سَمْعَانَ مِنْ أَرْضِ المِعَرَّةِ، وَعَاشَ: تِسْعاً وَثَلاَثِيْنَ سَنَةً وَنِصْفاً، وَكَانَتْ خِلاَفَتُهُ سَنَتَيْنِ وَخَمْسَةَ أَشْهُرٍ وَأَيَّاماً. والحمد لله رب العالمين